زائر الفجر

آلاء عز الدين

استيقظت من نومي فجأة لأجد الظلام الدامس يحوم حولي، مددت يدي جاهدًا بحثًا عن المحمول حتى وجدته، فتحت ونظرت للساعة، إنها الثالثة فجرًا، أشعلت الكشاف الضوئي وقمت من سريري لأفتح النور لكن التيار الكهربي كان منقطعًا، عدت لسريري وحاولت أن أستعيد غفوتي، لكنها أبت أن تعود لي، وكأنها تحدثني "كفاك اليوم".

قمت وفتحت باب الشقة الصغيرة أو بالأحرى الغرفة الكبيرة القابعة فوق سطح منزلنا، حيث أسكن -كمحاولة بائسة للاستقلال-، وخرجت إلى الجزء المكشوف من السطح أتأمل السماء في تلك الساعة.

صليت الفجر ومارست يومي ولا أذكر أن التيار الكهربي قد عاد حتى نزلت من المنزل وذهبت للعمل، ومر اليوم.

في الليلة التالية استيقظت في نفس الساعة ونفس الظروف، وكأن انقطاع التيار الكهربي صار منبهًا يوقظني كلما ذهب عنا، فلتذهب إن شئت، مالك ومالي! ولماذا تخبرني برحيلك أيها التيار اللعين؟

في الصباح مررت على أمي وأبي وجلست لأتناول فطوري معهما، ثم قالت أمي فجأة:

-"لقد أخبرني الحارس بالأمس أن هناك بعض التصليحات تُجريها شركة الكهرباء، وسيتم انقطاع التيار الكهربي يوميًا".

فرددتُ:

- "نعم لقد انقطع بالفعل أمس ويوم أمس." فرددت:

-"إن التصليحات ستبدأ من يوم غد!"

ذهبت بعد عملي إلى أحد الحدائق، غفلت للحظات رأيت فيها تلك الحادثة القديمة، أخي الأكبر وجارنا يجران شوال ويحفرون أسفل منزلنا ويدفنان هذا الشيء، أذكر تهديد أخي لي عندما انتبه لمراقبتي لهما، وكيف نظر جارنا إليَّ فزِعًا، ثم اقتربا مني ولك أن تتخيل طفل في الخامسة من عمره يواجه شابان في العشرين من عمريهما، واقتربا أكثر فأكثر وفجأة ركلتني كرة أحد الأولاد في رأسي،

-"آسف يا عماه، نحن لم نقصد إيذاءك!"

-"آه يا غفوتي، هل كنت تراوديني!"

عدت للمنزل وتناولت غذائي وقرأت ونمت لأستيقظ فجرًا في اليوم الثالث على التوالي، وأثناء الفطور ترددت أن أسأل أمي إن كان التيار الكهربي انقطع، ولكنها بادرتني:

-"سينقطع التيار الكهربي من الليلة"

فتابع أبي:

- "بالمناسبة إن كنت ممن ينزعجون من البقاء منفردين في الظلام، تعالى وبت معنا، غرفتك مازالت خالية"، وأتبعها بضحكة خفيفة.

غرفتي "الخالية" منذ أن فارقتها بحثًا عن الاستقلال، لقد كانت غرفتي وأخي، إلى أن قرر أخي الاستقلال عندما أنهى دراسته الجامعية، كان عمره حينها واحد وعشرين عامًا، وكان ينزعج من وجودي معه، وكثيرًا ما طلب من أبي أن يفرغ غرفة المكتبة لأنها في الأصل تصلح لغرف النوم، لكن أبي يقدس العلم، والكتب من وجهة نظره أكثر استحقاقًا، حينها اقترح أخي أن يسكن في ملحق السطح لينفرد بنفسه، وأنْفَرد أنا بالغرفة، وقد كان.

بمجرد دخولي للشركة التي أعمل بها، وجدت ورقة نعي لوفاة أحد زملائنا، وقد ساد الحزن وجوه الجميع، وبسرعة تجمعنا لنذهب ونشارك بصلاة الجنازة و الدفن، وعند المقابر رأيت أخي يجلس على حجر صخري كبير، ملفوفًا داخل كفنه الأبيض ينظر إليَّ لأول مرة نظرة رفق ويخاطبني:

- "إياك أن تسلك مسلكي!"

هزني زميلي:

-"ما بك، هل جئت معنا لتنام؟"

استفقت لأجد نفسي جالسًا على الأرض وساندًا ظهري لأحد المدافن، "لقد غفوت رُغمًا عني."

وفي طريق العودة أخذت أتذكر كيف وجدنا أخي ملقى في قبو المنزل جثة هامدة جاحظ العينين وبيده عدة ورقات يبدو أنها مقطوعة من كتاب عتيق.

الليلة هي الأولى في غرفتي "الخالية" بعد غياب، أشعر بالملل، أروح ذهابًا وآتي إيابًا، خفضت الإضاءة وفتحت النافذة ووقفت أتأمل وأفكر، "إياك أن تسلك مسلكي" ما هو مسلكك يا أخي؟ هل تقصد تركي للغرفة وسكني بالسطح؟ ومن المؤكد أنك لا تقصد مجال الدراسة لأننا حقاً مختلفين، إذن ماذا تقصد؟

فكرت أن أدخل إلى غرفة الكتب وأسحب كتابًا لأقرأه، وبالفعل فتحت الغرفة ودخلت، وأخذت أنظر بإمعان إلى الكتب المرصوصة بإتقان على الأرفف، لفت انتباهي كتاب قديم، أمسكت به وفتحته، يبدو ورقه مثل الورق الذي كان بيد أخي لحظة وفاته، العنوان "لا ....." فجأة انقطع التيار الكهربي، مصباح مضاء يدنو مني مع خطوات ثقيلة، شخص يحمله يرتدي الأبيض، وجه حامله أشبه بوجه... إنه أخي

-: "إياك وهذا الكتاب"

أشعر بيد تربت على وجهي "قم ونم بغرفتك يا بني" يحدثني أبي "هات هذا الكتاب واذهب لسريرك".

استغرقت عدة لحظات لأعي ما يحدث، قمت إلى غرفتي "الخالية" وتمددت على السرير، "الليلة سينقطع التيار الكهربي، هل سأستيقظ في الثالثة كالليالي السابقة؟" ضبطت المنبه على الثالثة وخلدت في النوم، ولم أستيقظ إلا في الصباح عندما سحبت أمي الستائر وفتحت النافذة "كفاك نومًا، قم توضأ وصل وتعالى لتفطر معنا"، حدثتها "هل انقطع التيار الكهربي؟" فردت "نعم ولكنك كنت غارقًا في نومك" فتابعت "إذن أزعجك المنبه" فردت مستغربة "أي منبه؟ أنا لم أسمع شيئًا"

"ماذا يحدث؟ أنا لا أفهم شيئًا!" سحبت ورقة وقلم وجلست إلى المكتب أرتب أفكاري: المسلك – الكتاب القديم – الثالثة فجرًا – المقبرة – أخي الذي يظهر لي ويحذرني، "الفطور يا بنيّ"، "حسنًا قادم".

مر أسبوع وانتهت تصليحات شركة الكهرباء، وعدت لغرفتي فوق السطح، وعدت لأستيقظ في الثالثة فجرًا وسط الظلام، لكن هذه الليلة استرقت أذني بعض الهمهمات تأتي من أسفل، فأضأت كشاف المحمول وحملت في يدي سكينًا ونزلت على الدرج، الهمهمات تزيد، مررت بالطابق الأساسي، والهمهمات تزيد، نزلت أكثر ووصلت للدور الأرضي، و الهمهمات تزيد، لن يتبقى إلا أن أنزل للقبو، تسمرت في مكاني لبعض الوقت، وفتحت باب القبو، لكن فجأة أضاء النور المكان كله، ترددت هل أكمل أم أعود، هل أنتظر للصباح؟ لكنني أشعر بأني قريب من السر، وماذا إذا نزلت وانقطع التيار الكهربي وأنا بالأسفل؟ أخذت قراري ونزلت، وبمجرد أن خطيت آخر درجات السلم وجدت أخي وجارنا وهما يحفران حفرة:

- هل تعتقد أنه مكان مناسب؟
- هكذا يقول الكتاب، تُذبح بنت صغيرة، وتُقطع إلى ستة أجزاء، ثم يُدفن كل ثلاثة أجزاء بمكان قريب من الناس، بعيد عن الأعين، ولن يكون أنسب من قبو منزلنا، وقبو منزلكم.
- قبو منزلنا به تهوية، أما قبو منزلكم، الرائحة ستكون صعبة.
- لا تقلق، فأعتقد أنه بعد أن صفينا الدم جيدًا وجمعناه في الزجاجة التي تعرفها..

-"ها هو يا حاج" صاحت أمي، فرد أبي متعصبًا "هذا المجنون، يعرضنا جميعًا للخطر، أمس يمسك بالكتاب واليوم يأتي إلى هنا وبيده سكين" ثم وجه كلامه لي "قم يا بني، قم"

ليلًا وفي غرفتي الكبيرة وشقتي الصغيرة، أخذت أجمع شتات الأمور، حادثة اختفاء الفتاة الصغيرة، وفاة جارنا في دورة المياه منتحرًا، ثم رحيل أهله من المنطقة وترك البيت مهجورًا حتى الآن، وفاة أخي في قبو المنزل نتيجة لأزمة قلبية كما قال الطبيب، كتاب عن السحر في مكتبة أبي، من الفتاة؟ لماذا قتلوها؟ ولماذا يتم إرسال هذه الرسائل لي أنا بالذات؟ وهل يخبئ والداي شيئًا؟

الآن الساعة الثالثة فجرًا، ينقطع التيار الكهربي، الباب يدق، طق، طق، طق، أفتح الباب لتظهر لي فتاة في التاسعة من عمرها وتسأل: "هل تبحث عني؟"